Published by the Academic Publication Council of Kuwait University. All rights reserved.

# Utopia of Self and Other in "Blue Pepper" by Mohammed Al-Harthi

**Hani Ismaiel Mohmaad Abo Retaba***


## Abstract

**This study focuses on the ideal utopian world that philosophers strive to theorize and apply in reality. It aims to uncover the philosophical dimensions in Mohammed Al-Harthi's journey titled "Blue Pepper", where the presence of "self" and "other" is evident. However, this presence is not portrayed in a stereotypical or conventional manner, but is imbued with a utopian dimension that deeply escapes from reality into a world of ideals and human virtues.**

**The study aims to reveal the image of the human self in the postmodern and post-postmodern era in its relation to reality, the other, and its struggle with its cultural environment. This is achieved by opposing the constants of cultural anthropology through rebellion—not against the anthropology itself but against the constants of beliefs and ideas in culturally colonized societies.**

**The importance of this study lies in its attempt to express the Arab self in its global context, how it views the world around it, what it desires, and what it strives to achieve based on its capabilities. The study adopts an analytical approach, focusing on psychological and social methodologies, to understand the relationship between "self" and "other" within the utopian vision of Mohammed Al-Harthi's travel narrative.**

**In conclusion, the study attempts to reach intellectual outcomes through its perspective, emphasizing the struggle of the postmodern human with themselves and with the other, and their relentless pursuit to escape from the material reality.**


**Keywords: cultural anthropology, culture, fragmentation, alienation, conflict.**

* Professor, Department of Arabic Language and Literature, College of Arts and Sciences, University of Nizwa, Sultanate of Oman. hani.ismail@unizwa.edu.om

**Submitted:** 22/7/2024, **Revised:** 19/9/2024, **Accepted:** 25/9/2024.

**https://doi.org/10.34120/ajh.v43i170.3203**

**To cite this article** /الإشارة المرجعية للبحث

أبو رطيبة، هاني: "يوتوبيا الذات والآخر في فلفل أزرق لمحمد الحارثي"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت: العدد 170، 2025، 45-77.

Abo Retaba, Hany. "Utopia of Self and Other in "Blue Pepper" by Mohammed Al-Harthi", *Arab Journal for the Humanities*: 170, 2025, 45-77.

تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت. جميع الحقوق محفوظة للمجلة.

# يوتوبيا الذات والآخر في فلفل أزرق لمحمد الحارثي

هاني إسماعيل محمد أبو رطيبة*


## الملخص

هذه دراسة تهتم بعالم اليوتوبيا المثالي الذي يسعى إليه الفلاسفة تنظيرًا وتطبيقًا على أرض الواقع. تسعى للكشف عن الأبعاد الفلسفية في رحلة محمد الحارثي الموسومة بفلفل أزرق التي من خلالها بدا حضور الذات والآخر واضحًا، لكنّه لم يكن بصورة نمطية أو مسايرة لما هو سائد، بل غلب عليهما – أقصد الذات والآخر– البعد اليوتوبي الموغل في الهروب من الواقع إلى عالم المثل والفضيلة الإنسانية. كانت رحلة الحارثي إبحارًا في الذات الإنسانية؛ إبحارًا يحمل الهم الإنساني الخاص والعام، العماني والعربي؛ لذلك جاءت رحلته محاولة لخلق عالمٍ جديدٍ؛ تتحقّق فيه ملامح العدالة والمساواة، وملامح الترفع عن العرقية والعنصرية؛ كي يسمو الإنسان، وتستقيم الحضارة.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن صورة الذات الإنسانية لإنسان ما بعد الحداثة وما بعدها في علاقته بواقعه، والآخر، وصراعه مع محيطه الحضاري عبر مناهضة ثوابت الأنثروبولوجيا الحضارية من خلال التمرد لا على تلك الأنثروبولوجيا، بل بالتمرد على ثوابت المعتقدات والأفكار في المجتمعات المُستعمَرة ثقافيًا. فهذه الدراسة محاولة للكشف عن المعضلات الثقافية والحضارية التي تواجه الإنسان عمومًا والعربي خصوصًا، بوصفه إنسانًا عانى من القهر الاستعماري والتهميش.

تكمن أهمية الدراسة في سعيها للتعبير عن الذات العربية في محيطها العالمي، وكيف ترى العالم من حولها، وما تتمناه وما تسعى لتحقيقه من خلال ما تملك من مقومات.

تعتمد الدراسة المنهج التحليلي مع التركيز على المنهجين النفسي والاجتماعي لفهم علاقة الذات والآخر في ظل الرؤية اليوتوبية للنص الرحلي لمحمد الحارثي.

تحاول الدراسة التوصل إلى نتائج فكرية من خلال رؤيتها كي تؤكد صراع إنسان ما بعد الحداثة مع ذاته ومع الآخر، وسعيه الدؤوب للهروب من الواقع المادي.


الكلمات المفتاحيّة: الأنثروبولوجيا الحضارية، الثقافة، التشظّي، الاغتراب، الصراع.

* أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم والآداب، جامعة نزوى، سلطنة عمان.
hani.ismail@unizwa.edu.om

الاستلام: 2024/7/22، التعديل النهائي: 2024/9/19، إجازة النشر: 2024/9/25

https://doi.org/10.34120/ajh.v43i170.3203

الإشارة المرجعية للبحث/ To cite this article

أبو رطيبة، هاني: "يوتوبيا الذات والآخر في فلفل أزرق لمحمد الحارثي"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت: العدد 170، 2025، 45-77.

Abo Retaba, Hany. "Utopia of Self and Other in "Blue Pepper" by Mohammed Al-Harthi", *Arab Journal for the Humanities*: 170, 2025, 45-77.

**مقدمة**

الفارق في هذا العالم المتلاطم بات قريبًا، سواءً كان الحديث عن الذات الإنسانية للشرقي أو الغربي، فرغم الفروق في الحيوات بين الشرق والغرب، وبين الاستسلام والاستعلاء؛ فإن كليهما يعاني حالة من الاضطراب في ظل التلاحق السريع للتكنولوجيا التي يسعى من خلالها الساسة إلى السيطرة على العقول البشرية، وتحويلها لدمى تتحرك وفق مخططاتهم. في ظل الصراع بين الذات والذات السلطوية، وقع الإنسان فريسة للتشظّي والتشرذم، مما أدى إلى غياب الوعي، وأحيانًا التمرّد على الزمان الذي يحيا فيه.

في ضوء ما سبق جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ (يوتوبيا الذات والآخر في رحلة فلفل أزرق لمحمد الحارثي) لتحاول قراءة الذات الإنسانية الطَمُوح التي تحاول أن ترسم بأناملها عالمًا جديدًا، يُغاير العالم الواقعي في كل شيء، فإن كان عالم الواقع يغلب عليه الصراع من أجل الرفاهية؛ فإن العالم الجديد تُهيمن عليه روح السلام، وإن كانت النعرات القبلية أو العرقية أو الدينية تخلق جوًا مشحونًا مليئًا بالتربص؛ فهذا العالم الافتراضي الذي أوجدته مخيلة الحارثي وعقله يقبل الاختلاف، ويتعايش معه بما يُشكِّل حياة مثالية، يستطيع فيه الإنسان أن يستمتع بعمره القصير في هذا الكون.

إن تبنّي هذه الدِّراسة رُؤية الفلسفة المثالية لتحليل الخطاب الرحلي سمح لها بتقديم مجموعة أسئلة، والسعي خلف إجاباتها، وهي إجاباتٌ ترتبط بالواقع المأزوم لإنسان الحداثة وما بعدها، ذلك الإنسان الغارق في هموم الدنيا وصراعاتها التي لا تنتهي؛ فطموحات الدولة في ظل التقدم التقني بات مهولًا واستغلاليًا، ومع بروز الرأسمالية المتوحشة، وبغياب العدالة أصبح الإنسان ترسًا ضعيفًا في عجلتها؛ لذلك بات الإنسان يطرح تساؤلات عديدة عن هويته في هذا العصر، وجاءت رحلة فلفل أزرق لتطرح عدة تساؤلات مهمة سعت الدراسة للإجابة عنها، وأهمها من أنا؟ ولماذا تعاني الذات التشرذم والضعف؟ لماذا يضطرب وعي الذات ويفقد قدرته على الاختيار؟ وما الذي يمنعنا من أن نخلق عالمنا المثالي؟ وكيف نتخلى عن الصراع؟ وكيف نتحلى بصفات القبول والتسامح؟ وهل بإمكان الآخر أن يتخلى عن قسوته ويعترف بذنوبه تجاه الإنسانية؟

تسعى الدراسة للإجابة عن التساؤلات السابقة من خلال تأويل الخطاب الرحلي للحارثي، وربطه بالجانب النفسي المتأزم لكل الشخصيات التي التقى بها في رحلته،

وكيف حاول أن يسمو بها فوق صراعات العالم المعاصر. وأرادت الدراسة أن تكشف عن رؤية الواقع، وكيف السبيل للتعايش الآمن بين الإنسان وأخيه الإنسان؟!

ترتبط رؤية خطاب الحارثي بالفلسفة المثالية وبنزعات الأخلاق والهوية التي أفرد لها فلاسفة الغرب المحافل للحديث عنها، وعن اغتراب الإنسان المعاصر، ومحاولات خلق العالم المثالي للإنسان؛ لذلك ربطت الدراسة بين ممارسات الحارثي في مثالية جزيرته وبين فلسفة اليوتوبيا، والفلاسفة الذين اهتموا باضطراب الذات الإنسانية وعلاقة الذات بالآخر.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن طريقة تفكير المفكر العربي من خلال خطابه عمومًا، وخطابه الرحلي خصوصًا؛ ذلك الخطاب الذي يُمكِّنه اللقاء مع أعراق مختلفة، يستطيع من خلال علاقته بهم اكتشاف ذاته في مرآتهم، فالذات لا تستطيع أن ترى نفسها حقيقة إلا عندما تبصر نفسها في مرآة الآخر، وكيف ينظر لها هذا الآخر؟ وكيف تنظر هي للآخر؟ وهل بالإمكان التعايش معه وخلق أرضية إنسانية مشتركة تسمح لهما بالتعايش الآمن؟

تهدف الدراسة إلى الكشف عن رؤى الحارثي المثالية التي تسهم في تشكيل ذاته المثالية المتسامحة، ومثالية جزيرته المتنوعة الثقافة والعرق والجنس.

تهتم الدراسة بالخطاب الفلسفي المثالي الذي تبنّته من أجل الكشف عن رؤى الخطاب في قضية الهوية الإنسانية، وقضايا الذات والآخر، واختلافهما، معتمدة على ربط الخطاب الرحلي بفلسفة الأخلاق المثالية الغربية؛ لذلك اعتمدت المنهج الإجرائي التحليلي بوصفه المنهج المناسب لرصد رؤية الخطاب وطرائقه في التعبير عن أزماته وكيفية التغلب عليها.

قُسِّمت الدراسة إلى مباحث عدّة، جاءت: الذات الممزقة / النقيضة، والذات المثالية، الذات الواقعية، (النحن) بكل أنماطها، والآخر المثالي، والآخر المستعمر.

وفي النهاية توصلت الدراسة لمجموعة من النتائج أهمها: الرؤية الفلسفية للخطاب الرحلي، ورؤية المفكر العربي لذاته ورصده للآخر، وضرورة الربط بين الذات الحاضرة والذات التاريخية من أجل مواكبة التقدم والتغلب على التراجع الحضاري للذات العربية.

## 1 - يوتوبيا المجتمع ( مجتمع الحارثي )

كانت رحلة الحارثي إنسانية للصفاء النفسي، لم تكن رحلة هدفها متعة التجول، أو الاستمتاع بالذات المتعالية التي تملك رفاهية الرحلات السياحية، ولم تكن رحلته مادية، بل كانت – من وجهة نظري – رحلة للتعالي فوق المادية التي هيمنت على أجواء الحياة في زمن المؤلف؛ أجواء أنهكت النفس الإنسانية عمومًا، وأنهكت المؤلف خصوصًا؛ فقرر أن يرتحل إلى عالمه الافتراضي: عالمه الذي تهيمن فيه الحكمة الإنسانية، وكأنه يستعيد رؤية أفلاطون عن المدينة المثالية التي يحكمها الفلاسفة والحكماء؛ بهدف الوصول إلى عالم مثالي، يسمو فيه العلم والفكر والفلسفة بالروح الإنسانية، لكنَّ رؤيته لم يصبها جموح الأفكار المثالية غير القابلة للتحقيق؛ فهو يعي استحالة أن يَخلُق عالمًا مثاليًا كبيرًا؛ لأن البشر مختلفون، لهم نوازعهم النرجسية، والشريرة، فالإنسان لم يكن كما كان في الأزمنة البدائية، فقد تغيَّرت ملامحه، منذ آمن بقدرته على الامتلاك أو التملُّك؛ لذلك كان هدف الحارثي أن يخلق عالمه المثالي المحدود في رحلته، من خلال اختيار أشخاصه بعناية تضمن له التوافق المثالي؛ كي يحقق أمنيته المنشودة، وهذا ما جعله يتوقف أمام النماذج الإنسانية الأكثر معاناة؛ لأنها الأكثر قابلية للقناعة والتسليم بما منحها الله؛ لأنهم على علم ووعي بأن هذا العالم المثالي الذي يترأسه الحارثي هو عالم مرهون بمدة قصيرة، وظروف معينة، هذا ما دفعهم جميعًا للتعاون المثالي الذي أنجح ذلك العالم.

كان المهمّشون والبسطاء والفقراء هم الفئة الأكثر حضورًا في مجتمع الحارثي المثالي ومعهم طلاب العالم والرسامون الذين يقعون فرائس أحلامهم وطموحاتهم الفنية، بعد أن أنهكتهم الحياة والمعاناة من أجل تحقيق طموحاتهم الفنية والعلمية؛ فالحارثي بحسّه الفلسفي امتلك القدرة على اختيار أعضاء مجتمعه بعناية شديدة التي أسهمت في نجاح تجربته المثالية في رحلته، فلم يقع الحارثي فريسة للاستغلال أو الابتزاز – رغم غربته – لأنه امتلك حكمة الاختيار، والحكمة هي أبرز ملامح العالم المثالي Utopia، كما جاء في فلسفة أفلاطون.

بدا مجتمع الحارثي مثل جنة الفقير أو أرض ( كوكين) أو مجتمع احتفالات عيد الإله (سارتون) الذي كان يحكم فيه الفقراء لبعض الوقت[1]،

يختلف مجتمع الحارثي المثالي عن المجتمعات المثالية القديمة في صورتها الفلسفية، ويرجع هذا إلى تطورات الزمن، وواقعه، وصعوباته، ورؤية صاحب التجربة وخبراته الإنسانية؛ فاليوتوبيات المعاصرة التي ينتمي إليها مجتمع الحارثي " لا تشبه على الإطلاق ما كنا نطلق عليه في السابق مثاليًا/ يوتوبيا Utopia؛ فهي على وجه الخصوص أكثر تعقيدًا، وأقل تحديدًا في مقاصدها، وتسعى لتوضيح عيوب البشر"[2] لكنّ مجتمع الحارثي كان أكثر مصداقية؛ لأنه كان يبرز عيوب البشر؛ بهدف علاجها داخل مجتمعه، فالمهمّش المنبوذ قبله الحارثي، وتعامل معه بأريحية كما فعل مع (جيمس) الإنجليزي، والفقير البسيط احتواه بإيجابية أثمرت تعاونًا صادقًا بينهما كما حدث بينه وبين أذان (أزان) والمقهور استطاع أن يرفع من نفسيته ومعنوياته وهو يمنحه سلطة الاختيار والتحديد للفنادق والرحلات والطرق كما جرى مع سائقه (ماركوس)، وكانت أكبر صور الاحتواء والتعاون مع شخصية اليمني المُتنصِّر، المتمرّد على ثقافته ودينه وجنسه بعنف، واستطاع مجتمع الحارثي المثالي أن يجعله عضوًا فاعلًا فيه، وبعد أن كان رافضًا الاقتراب من أي فرد يُذكِّره بأصوله وماضيه؛ اندمج مع الحارثي جاره القريب، بل استطاع مجتمع الحارثي أن يخفف من تمرّده وعنفه بما يجعله عضوًا مميزًا في ذلك المجتمع الجديد.

تشكَّل مجتمع يوتوبيا الحارثي من ثلاث طبقات بنى عليها رؤيته وفكرته، وأقام بها دعائم مجتمعه، وكانت الطبقة الأولى: هي طبقة العقل أو الحكمة، وكان يمثلها هو الذي كان يشبه حاكم هذا المجتمع، يسوسه بحكمته ورعايته وعنايته المعنوية والمادية، والطبقة الثانية: هي طبقة العاطفة أو المشاعر الإنسانية، وهي طبقة مهمة للغاية؛ لأنها الضامن الحقيقي لانضواء الجميع تحت راية المجتمع المثالي برضا وقناعة، والطبقة الثالثة: هي الطبقة العاملة أو الكادحة من العمال والحرفيين[3]، وهؤلاء هم حجر الزاوية في مجتمع الحارثي، ومن خلالهم نجح في تشكيل عالمه أو مجتمعه المثالي الذي اندمج فيه أفراده كلهم، وباتوا مواطنين صالحين.

**2 - الذات**

**1/2 - الذات الواقعية**

الذات الواقعية هي الذات التي تنخرط في الروح الجماعية، ملتزمة – في الغالب –

بعاداتها وتقاليدها، وبمعتقدها الديني والشعبي، مُنفِّذة بوعي أو دون وعي النظام السائد في المجتمع، والنظام الذي أوجدته الروح الجماعية، وفرضت وجوده على أفرادها.

تُمثِّل الذات الواقعية العقلانية في سعيها " لإشباع الحاجات والرغبات على وفق مبدأ الواقع؛ حيث تُقرر الوقت والأسلوب الذي يمكن أن تشبع بهما هذه الحاجات أو الغرائز إشباعًا مناسبًا ومقبولًا اجتماعيًا؛ حتى وإن استخدمت الإرجاء والتأخير"[4]، فهي تُخْضِعُ الذات الواقعية للروح الجماعية، وتَخْضَعُ للمساءلة المجتمعية؛ لنيل الاعتراف بها، فهذه الذات مرتبطة بالمحيط الاجتماعي، لا تستطيع أن تنفك عنه، وتسعى دائمًا إلى نيل قبوله واعترافه.

تتميز الذات الواقعية بالملاحظة والتساؤلات الذاتية؛ فهي بحكم روح الجماعة أو المُكِّون الاجتماعي تسعى للفهم؛ لتعلن تقبُّلها أو رفضها لما يدور حولها، وأحيانًا ينشب صراعٌ داخليٌ بين الذات الواقعية والمثالية، تجاه بعض السلوكات الإنسانية، وفي الغالب تنتصر الذات الواقعية وتتوارى المثالية تحت ضغط الروح الجماعية، ونادرًا ما تنتصر الذات المثالية، وتتمرّد على الذات الواقعية والروح الجماعية " لمن يتملّى طبيعة الرّفقة أن (تشينتاكا) قد نام في غرفة (جيمس) ليلة البارحة، ولم يأت بالتُّكتك كعادته في أيام سابقة"[5] الذات الواقعية سعت عبر التساؤلات الذهنية لفهم ما يدور حولها، ولا سيّما مع قرب تلك الشخصيات منها، ووقوعها قريبة من محيطها الاجتماعي، وعالمها الجديد، وتبدو للوهلة الأولى حالة عدم الرضا الاجتماعي ومحاولة التقبُّل لتلك العلاقة التي تشي بشيء ربما غير مقبول اجتماعيًا ودينيًا وفق الروح الجماعية للذات الواقعية.

تستمر الأسئلة التي تطرحها الذات الواقعية على نفسها، لا بهدف تشكيل الفلسفة الأخلاقية لشخصيات المحيط الاجتماعي فقط، إنما بهدف خلق وجودي منطقي ومقبول من طرفه، ونيل اعتراف الآخر به أو الذات الأخرى، "حين أترك الطاولة كنت أرى (ماركوس) يتحدث في هاتفه النقال، ويلتقط الصور التي خمَّنت أنه يرسلها لزوجته، استنتجت أن زوجته تراقبه عن بعد"[6]. إن الفضول الإنساني الذي تتحلى به الذات الواقعية هو إجابة عن تساؤلات عميقة، أهمها أين أنا من موقع الآخر؟ ومن هو هذا الآخر الذي أتعامل معه؟ وكيف أتعامل معه؟ إنها أسئلة وجودية، تبتغي الإجابة عنها من خلال الفضول والتخمين والتحليل وقياس السلوكات الملموسة. أهم ما يميز الذات الواقعية

العقلانية التي تتأسس وفق روح الجماعة الاجتماعية، التي تُشكِّل الوعي الثقافي لها "إنها هي المسيطرة في علاقتهما، وإلا ما الذي يدعو مسيحيًا للزواج من مسلمة؟ ... ألا يكفي أنها أعطته حق تعميد أطفالهما في الكنيسة عوض أن ينشؤوا مسلمين؟"[7] تتوقف الذات الواقعية أمام هذه العلاقة الغريبة عنها، وهي علاقة بعيدة البعد كلّه عن الروح الجماعية لها، فالذات الواقعية لا تنقطع عن روح الجماعة التي نشأت فيها، بل هي جزء أصيل منها؛ لذلك فمثل تلك العلاقات تثير اهتمامها، وتحاول فهمها، وفهم كيف تمت؟ في ظل الاختلاف العقدي الشديد بين الزوج والزوجة، وهنا يبرز التحليل التأملي، الذي يفترض سيطرة المرأة – المسلمة – على الرجل – المسيحي – وكأن الذات الواقعية تحاول الانتصار لتراثها، لروح جماعتها، بصفة انتصار معنوي افترض أن هذه العلاقة الغريبة كانت الغلبة فيها للمرأة المسلمة؛ فهي إن قبلت بهذا الزواج، فإنها استطاعت أن تستحوذ على السيادة الأسرية.

تكمل الذات الواقعية تأملها للحالة الغريبة، وتؤكد موقفها من تبادل الانتصار والهزيمة بين طرفيها، "وهو حقٌّ أخبرني (ماركوس) أنه ناضل للحصول عليه، وقد اكتسب بذلك رضى عائلته المسيحية الكاثوليكية، وامتعاض زوجته التي كان حلمها أن تُسمي أول أبنائها محمد"[8] إننا أمام صراع نفسي داخلي بين الذات الواقعية للراوي والذات المثالية، فالأولى تجنح لروح الجماعة، للمعتقد الديني، والثانية تميل إلى التحرر وخلق روح المثالية التي تقوم على " موقف الإنسان الفردي النابع من ذاته، في تقييمه للعالم الخارجي والعلاقة به"[9] ، وتقمع الذات المثالية الذات الواقعية، وتجبرها على تقبُّل التعامل مع (ماركوس)، لكنها داخليًا تُقرّ بأنها علاقة ملعونة وستنتهي لا محالة بموت الرجل " وسواء كان (ماركوس) معي أو مع سائح آخر ستظل زوجته تطارده عبر الهاتف طوال حياته؛ ليموت شابًا؛ لأنها ألهته عن القيادة بنقاش حاد معها"[10]

تستمر المناوشات بين الذات المثالية التي فرضت وجودها مبكرًا على الراوي وبين الذات الواقعية التي لن تتنازل بسهولة عن موقعها ولا هيمنتها السابقة؛ لذلك تظهر من وقت لآخر؛ لتُنبِّه صاحبها إلى معتقده الديني وثقافته الاجتماعية، " ثمة أشجار عملاقة ... وهي مدهشة ببهائها وظلالها الوفيرة التي تذكر المرء بما قد ينتظره في أفياء جنة عدن"[11] حضرت الروح الجماعية، حضرت بمعتقدها الديني الذي ترسَّخ داخل الذات الواقعية، وكأنها جاءت لتُذكرِّه بمعتقده الديني؛ كي لا ينساق خلف ذاته المثالية التي راحت تسوِّغ له

تقبُّل كل مخالف لها – روحه الجماعية – " على عيني وراسي يا قيس الجيلاني "[12] تناوش الذات الواقعية العربي صاحب الذات الممزّقة، وتحاول تذكيره بأصله الذي يتهرّب منه، لعلَّه يستفيق ويعود إلى رشده من جديد، على الأقل الاعتراف بيمنيَّته واسمه، إنه تمرُّد الذات الواقعية على الروح المثالية التي فرضها العالم الافتراضي الجديد الذي خلقه الراوي لنفسه؛ كي يحيا فيه بعيدًا عن عالم التناقضات والصراعات والأحقاد؛ لكن ذلك لن يكون سهلًا في ظل الروح الجماعية له، والأنثروبولوجيا الحضارية التي هو جزء منها، بكل ما فيها من نواقص إنسانية.

تعتمد الذات الواقعية عمليات السرد، ليس بهدف نقل المعلومات فحسب، " ولكن بوصفه نشرًا للغة يسعى إلى التأثير على الآخر، مدفوعًا برغبة أو أمنية تفترض شكلًا إمثوليًا ( إليغوريًا ) لمشهد التحليل التحاوري "[13] فهذا الحوار أو الصراع بين الذاتين الذي يسوِّغ حالة التمزق داخل الإنسان، هو أكبر دليل على الحال التي يعيشها إنسان ما بعد الحداثة التي يمثلها الراوي وكل إنسان عاش في هذا الزمن، لكن الراوي / الرحَّالة حاول جاهدًا كبح جماح الروح الجماعية لمصلحة الذات المثالية، أو الروح الجماعية الجديدة في المجتمع الافتراضي الذي صنعه الرحَّالة؛ كي ينعم فيه بسلام نفسي عميق.

**2/2 - الذات المثالية**

تميل الذات المثالية إلى إنتاج واقع متمنى للذات الإنسانية، لا تقف أمامه العتبات التي قد تعوق خلق مثل هذه الصورة أو الحال الإنسانية التي تسعى إليها الذات بكل وسائلها الممكنة.

إن الذات المثالية في أبسط تعريفاتها هي " الصورة المثالية التي تضعها الذات بنفسها – الطريقة التي يود المرء أن يكون عليها، أو الطريقة التي يود أن يراه الآخرون بها –. مثال الأنا هو الكيان الذي تحاول الذات أن تثير إعجابه بالصورة التي تضعها الأنا الخاصة بها؛ أي أنه الآخر الكبير الذي يحثني على تقديم أفضل ما لدي "[14]

يسعى الإنسان للأمان، ويشعر به " في العالم الافتراضي أكثر منه في بيته بين أربعة حيطان "[15]، والعالم الافتراضي هنا لا يشترط أن يكون عالم وسائل التواصل الاجتماعي المنتشرة حاليًا؛ إنما تقصد بها الدراسة ذلك العالم الذي يخلقه الإنسان بعيدًا عن موطنه

الأصلي في رحلاته التي يخلُق فيها بهجة إنسانية خاصة به، وصداقات جديدة، مؤقتة، لكنّها ناجعة؛ لأنه من خلالها سيشكّل صورة الذات المثالية التي عاش يطمح إليها طيلة حياته، في عالمه الواقعي، لكنَّه -ربما - عجز عن تحقيقها تحت وطأة الحياة، وصراع الأيديولوجيَّات المُجتمعيَّة، وهيمنة الأنثروبولوجيا الحضارية، التي شكَّلت وعي الذات تشكيلًا غير سوي.

فالذات المثالية هي " القوة التي تعمل على كبح الحاجات الغريزيَّة أو الفطريَّة كبحًا قاسيًا وغير عقلاني؛ حيث تسعى إلى الكمال الأخلاقي بأعلى صورة"[16] غير عابئة بالصورة الاجتماعية، أو ما استقر في العقل والوجدان من فعل ثقافة الدين والعادات والتقاليد.

إننا أمام الذات الما بعد حداثية، تلك الذات التي تجزَّأت وغامرت كثيرًا، وتسعى بعد هذه الصراعات إلى تشكيل ذات جديدة غادرت محنتها، عبر تشكيل واقع جديد مرغوب فيه، وذات جديدة تطمح للإنسانية، والتوقف عن الصراعات، من أجل هدنة إنسانية، يتوقف فيها الصراع، بأشكاله كلّها.

تحضر الذات المثالية في أول لقاء بين الكاتب وفكره أو ما يسعى إلى سرده من خلال معايشته لعالمه الافتراضي الجديد " لم أعد مكترثًا لطبيعة العلاقة المفترضة بين الكاتب والقارئ في موازين الأحكام والشروط؛ فقد طاب لي مناكفة الأنا العليا ( الـ super -ego وفقًا لسيجموند فرويد) تساميًا عليها؛ لأسبغ صفة الوغد على أناي كسرًا لنموذج نرجسية بغيضة لدى كُتَّاب يكذبون على قرَّائهم، وحقًا لا أعرف أي شيطان ألهمني استمراء الأمر من يدري؟"[17]. الذات هنا تتعالى فوق واقعها الاجتماعي والدنيوي، تسعى للكمال، للمثالية، تؤكد أنها تجاهد في كبح جماح الأغراض الدنيوية؛ لتخلق الذات المثالية في العالم الافتراضي المصنوع برؤية وجدانية إنسانية، ستسعى الذات للتأكيد عليها بالفعل الاجتماعي المثالي طيلة الرحلة.

تبدأ الذات المثالية في رسم صورتها المبتغاة، من خلال التسامح الشديد مع الآخر الخُلقي والاجتماعي، الآخر الذي يخالف - وفق دين الذات وعاداتها وتقاليدها - الناموس الطبيعي للإنسان " أنا مثلي الجنس"[18] اعترف (جيمس) للراوي بميوله المرفوضة دينيًا واجتماعيًا، وأكمل (جيمس) سبب اعترافه هذا " أخبرك بهذا لأنني

ارتحت إليك، ورغم أنك جئت من بيئة عربية محافظة ومتزمتة إلا أنني من خلال أحاديثنا لاحظت تسامحك وتقديرك وانتقادك لسلوك البشر على مستوى العرق والدين والتّسيُّس"[19] كانت صورة الذات قد راحت تبني نفسها في محيطها الجديد، تنمو وتزداد يقينًا بقدرتها على الاعتدال الإنساني، من خلال أدوارها الاجتماعية التي تؤدّيها بالفعل، وهي تُبصر نفسها بدقة كما تُبصر الآخرين وأدوارهم؛ لذلك تلمّس (جيمس) صورة الذات المثالية في الراوي، وصارحه بما يخفيه؛ لأنه على يقين أن تلك الذات ستتلقى هذا بروح التسامح والود المغاير لطبيعة الإنسان العربي " شكرًا لمصارحتي (جيمس)، ولا شأن لي بطبيعة علاقتكما، يكفيني استمتاعي برفقتك، بالرحلة السياحية المجانية التي يدفع السياح روبيات كثيرة ليحظوا بها"[20].

إن مثل هذه السلوكات التي تصادف الذات المثالية تساعدها على الثقة، وعلى نمو الذات المثالية الجديدة نموًّا سويًّا إيجابيًا، فمن الطبيعي أن تعتز الذات المثالية للراوي بما حققته من ثقة الآخرين بها وسلوكاتهم معها. "يبدو الترابط إلى درجة أنه يأخذ صورة التبعية الائتمارية، وبالفعل فإنه في داخل القصة المحكية مع ميزتها بوحدتها وتمفصلها الداخلي، وتمامها، التي تأتيها من عملية صياغة الحبكة تحافظ الشخصية – الذات المثالية – على امتداد القصة على هوية مترابطة مع هوية القصة نفسها"[21] فالذات المثالية تروي لتُعمِّق الإحساس بالنجاح في خلق ذلك المجتمع الافتراضي المنتمي للإنسانية، التي قوامها التسامح وتقبُّل الآخر؛ لذلك استمرت الذات المثالية في التأكيد على تقبُّل هذا الأمر من خلال السرد التاريخي، وهذا ما جعل الآخر يكمل مديحه الإنساني لهذه الذات[22].

تتعالى الذات المثالية فوق الروح الجماعية؛ لذا عجزت الروح الجماعية عن تأكيد غلبتها، وتوارت أمام الذات المثالية عند الراوي، استغل الراوي التوتر الذي نشب بين الروح الجماعية والخُلُقية – على حد تعبير (أدورنو) – مما أسهم في أفول الروح الجماعية أمام المثالية الخُلُقية للذات"[23]، وعندما أمنت الذات على نفسها، واستقوت على عنف الروح الجماعية وقسوتها؛ استطاعت أن تعلي من التسامح، لا أمام الآخر، إنما أمام الذات الواقعية داخلها، فراحت تقدّس الآخر فكرًا وثقافة ومعتقدًا"؛ حيث توجد عظمة صغيرة، يعتقد أنها لبوذا عليه السلام"[24] تماسكت الذات المثالية وراحت تؤكد تخلُّصها من الضمير المثقل بالذنب؛ لتتسامح مع الآخر بأطيافه كلّها. إننا أمام ذات استطاعت أن تفهم نفسها،

فكما ذكر (نيتشة) "أننا لا نصبح واعين بأنفسنا إلا بعد أن نتعرض لأضرار معينة"[25] نستفيق بعدها، ونتخلص من الروح الجماعية العنيفة؛ لنعي ذاتنا، ومع هذا الوعي نتحول بإرادتنا إلى الذات المثالية، التي مثلتها تعبيرات الراوي وهو يتحدث عن الآخر أمام ذاته الواقعية.

"يا لأخوة الديانات فيما ظهر منها وما بطن"[26] تبرز هنا الذات المثالية، لتقول للجميع مبتدئة بذاتها الواقعية، إن التسامح وتقبُّل الآخر هو أسمى مراتب تلك الحياة.

"وبوحي من الآلهة (كالي) وجدت نفسي حين أتى النادل، أطلب من (ماركوس) أن يقول للشيخ الهندوسي العجوز، إن حسابه قد دُفع"[27] تؤكّد الذات المثالية أن الخير لا بد أن يسود، ولا بد أن ترتفع روح التكافل، وتُطبقها واقعًا عندما تُبصر الرجل الهندوسي الفقير في المطعم.

"إن كل أخلاق نبيلة إنما تنبثق من قول نعم لنفسها، بانتصار ... – إن الذات المثالية لا تبحث عن ضديها إلا من أجل أن تقول لنفسها نعم، أكثر عرفانًا وأكثر ابتهاجًا"[28]. شعر الراوي بسعادة وراحة عقب فعله مع الشيخ الهندوسي، وراح يتخيّل كيف سيتلقى هذا الشيخ الكرم الذي هبط عليه من السماء؟ وكيف سيتعاطى معه مستقبلًا، وبصورة مثالية توقعت الذات المثالية أن يسهم في نبذ الشر والعنف " لعله يسهم – على ضعفه – في محو الشر والانتقام من على سطح البسيطة"[29].

كانت الذات المثالية تسعى دومًا إلى العدالة والتكافل الاجتماعي؛ فهي ذات تسامت من أجل نشر الخير والكرامة والحياة، ودحر الشر والانتقام والفقر " فاستشعر (روكسان) نهج عدالة غير متوقع – خلافًا لظنونه – وبدأ يتحدث مع (عزّان) ببشاشة وانطلاق، بعد زوال تخوّفه من انقطاع الروبيات التي أكافئه بها نظير خدماته"[30] شعرت الذات المثالية بالغبطة من سعيها للعدالة، فكل أفعالها جاءت بنتائج إيجابية، وبدأ عالمها الافتراضي يتجه نحو المثالية " بل إنه تعمَّد صعود شجرة الدّوريان لاقتطاف ثمرتين منها أهدى إحداهما (عزّان) وترك الأخرى في مطبخي"[31].

تؤسس الذات المثالية " إلى الحدس البدائي للأخلاق، أي إلى الرؤية أو الاستهداف للحياة الجيدة الخيرة مع الآخرين، ومن أجلهم، في مؤسسات عادلة"[32]

تنبذ الذات المثالية كل مسببات الخلافات والأحقاد، تقتنع بمعتقدها، لكنها لا تُهمِّش الآخر ولا معتقده " فأنا لست منشغلًا، بالخلافات المذهبية وتكفير كل مذهب للآخر"[33]

عاش الراوي رحلته بأريحية النفس التواقة إلى التسامح، في ظل واقع ما بعد الحداثة الذي كان يتشكّل بكل صراعاته الأيديولوجية، الدينية، الاستعمارية، كان يسعى لتحقيق التوزان النفسي؛ كي ينجو من الوقوع في فخ التمزّق، والتشظّي الوجودي؛ لذلك نبذ كل اختلاف مهما كانت قدسيته في حياته؛ حياة ما قبل رحلة التسامح التي خلقها بقدراته وإيمانه العميق بذاته المثالية، وبالمجتمع الذي عاش فيه، وكأنه مجتمع الهروب من الواقع المحموم بكل تناقض " حين وضعوا على جبيني تلك العلامة/ الدائرة الصبيغية باللون الأحمر جعلتني أشعر للحظات بأنني هندوسيّ. ولم لا؟ .. فقد أهداني شاب مسيحي كاثوليكي في رحلتي السابقة تمثالًا خشبيًا صغيرًا للمسيح محاطًا بسُبحة لألبسه في عنقي، لعلّ المسيحي يحميني، وحين عدتُ إلى مسقط علّقته في مكان بارز، قرب لوحة خشبية هائلة الحجم لوجه بوذا عليه السلام"[34] الذات المثالية تحقق التصالح النفسي والوجداني عبر التقُّبل المفتوح بين عناصر الاختلاف البشرية، وكأنها تريد أن تصرخ في وجه التعنصر والاختلافات الدينية، أن الله خلقنا على هذا الاختلاف؛ لنعيش سويًا في تسامح تام، " فجلستُ قربهم، وقمتُ وأضمرت في نفسي صلاة روحية، ألهمنيها معبد (نلّور)، وكنتُ على يقين بأن الله خالق الكينونية، سيتقبلها منّي، مسلمًا، مسيحيًا، يهوديًا، بوذيًّا كنتُ أم هندوسيًّا في تلك اللحظة، ففي قلبه كما استوحينا من كتبه المقدسة مُتّسع لكافة المؤمنين.[35]

أدركت الذات المثالية بوعي قيمتها ودورها في الحياة، وراحت تحاول أن تتجاوز أخلاقيات الحداثة وما بعدها؛ أخلاق الصراعات والأحقاد الإنسانية، وخلقت بوعي تام عالمها الافتراضي أو المتمنّى؛ عالمًا تسود فيه القيم الخُلُقية التي تسعى للحياة بسلام، بعيدًا عن ضجيج الاختلافات الأيديولوجية والدينية والعرقية.

**3/2 - الذات الممزّقة ( الذات / الذات النقيض )**

تعاني الذات العربية لعنة الحضارة الحديثة؛ تلك اللعنة التي تمثّلت في خضوع العالم العربي للاستعمار الذي سلبه كل مقومات الحياة الإنسانية، وجرّده من تلك الصفات الإيجابية التي أقام عليها حضارته، وذاته الفاعلة في المحيط الثقافي والحضاري، ولم

يكتفِ المستعمِر بتلك الحقب التي استعمره فيها، بل استمر في هيمنته واستبداده حتى بعد الجلاء. في ظلّ هيمنة حالة الفصام العربي كان الغرب يتقدم بسرعة كبيرة، ويعيد تشكيل الكون على أساس هذا التقدُّم، وأنتج المزيد من الصراعات والحروب والانقسامات؛ كي يضمن السيادة الاقتصادية. وقعت الذات العربية فريسة للقهر من الداخل والخارج؛ مما أوجد حالة الغربة، لقد قُسِّمت الذات العربية إلى الذات والذات النقيض، التي انفصلت عن محيطها، وتحوّلت لرافضة لنفسها أحيانًا ولمحيطها غالبًا؛ "إنها اللعنة التي أصابت المجتمعات العربية التي أصبحت تعاني عداء مجانيًا بين ذوات مُكوِّنة لوجدانها وضميرها الجمعيين، وهذا العداء أخذ الطابع العنيف بين فئات اجتماعية، كانت إلى وقت قريب تبدو منسجمة عقائديًا وثقافيًا؛ مما عطَّل، بل شلّ عمليات الإدراك لدى الذات العربية [36]

تمْثُل شخصية (جوزيف) بوصفها نموذجًا عربيًا يعاني صروف القهر الذي خلق بداخله تلك الذات القلقة المتوترة، الخائفة الناقمة غير الواعية، وتبدو نقمتها واضحة وهي تتحدث عن البلد التي آوتها، ووفرت لها الرعاية أو الحماية " تشرفنا وتشرفت البلد العكرة. وليش عكرة؟ سيلان فردوس السياح، لو بس تعرف الحقيقة. خليها على الله"[37] تبدو نقمته هذه ناتجة من ظروف القهر التي عاشها، ليست في بيئته الخاصة فحسب، إنما بوصفه عربيًا يحيا في واقع مضطرب، لا تحتمله بعض النفوس المرهفة أو المثالية أو الهشة.

يعاني الشاب أزمة هوية، تجعله مشوشًا في اختياراته ونظرته للمحيط الذي يحيا فيه " لاحظت أنه مشوش وضائع، ولسبب ما ناقم على البلد الذي استضافه، أثارتني حكايته المقتضبة"[38] غابت هويته داخل القهر الإنساني الذي أنتجه، ولأن الهوية بكل صورها لا تتشكل إلا " داخل تاريخ اجتماعي – ثقافي ينتجها"[39]، وينتج أدوات الأنثروبولوجيا الحضارية التي خلقت واقع الذات المنفصمة الممزقة في (جوزيف)، النموذج المثالي للتعبير عن أزمة الذات العربية المعاصرة المحاصرة من خلال الأنثربولوجيا الحضارية[40] التي وظّفت أدواتها لكبح جماح التطلع الروحي والإنساني لدى الذات العربية؛ لهذا كان (جوزيف) ممزّقًا، ناقمًا، قلقًا، يحتمي من نفسه خلف تذمّره الدائم وشعوره بالاضطهاد؛ فقرر الخروج من عباءة دينه إلى محيط ديني آخر، ظن أن فيه الخلاص من أثر أنثروبولوجيته الحضارية.

كانت شخصية (جوزيف) شخصية البطل الأنثروبولوجي الحضاري العربي الذي يعاني إشكالية حضارته، لكن الجديد في شخصيته أنه خلق من ذاته آخر راح يعاديه، وصنعت إشكاليته من ذاته الفردية آخر في محيطه الحضاري؛ مما جعله فريسة سهلة للتمزُّق والتشظّي " قصتي طويلة؛ فلنؤجل الحديث عنها للأيام اللاحقة، دعني أستمتع بهذه الأيام التي قضيتها معك دون أن تُكدِّر مزاجي الذكريات المؤلمة"[41]. تُؤكّد تلميحات (جوزيف) علاقته بحضارته وثقافته – لا يريد أن يذكرها– اللتين خلقتا من ذاته رفضًا حاسمًا تُخبر به تصرفاته؛ حتى لهجته التي تهرّب منها إلى اللهجة المصرية واللبنانية؛ كي يتخفّى بهما من ذاته المُنفصمة " وُلدت في عدن لعائلة من السادة، وكان أبي ذا مقام ديني وروحي في الحي الذي نقطنه"[42]. كانت الإشكالية الحضارية عند الذات العربية تتلبّس طابعًا جنسيًا صريحًا؛ لأنها كانت فريسة الصدمة الحضارية"[43] لكنها في العقود الأخيرة راحت تتلبّس البعد الديني تزمتًا مع الدين أو ضده، وعمّق هذا من إشكاليات الأنثربولوجية الحضارية " لكن المؤسف أن أخي الأكبر انضم لإحدى الجماعات الإسلامية المتطرّفة، وبدأ يفرض قوانينه المتزمّتة على كل من في البيت"[44].

بدأ التغيُّر يحدث بصورة تدريجية؛ فاستسلم الشاب لما يحدث معه، ولم يبد أي مقاومة أو رفض للقوانين المفروضة عليه، لكنّ هذا لن يدوم ولا سيّما مع تطور عنف الآخر " كنت أنزعج حين يوقظني برفسة من رجله؛ لمرافقته للصلاة وأنا في عِزّ النوم، مستغرقًا في عِزّ أحلامي، التي تأخذني إلى عوالم المراهقين؛ لكنني تقبَّلت ذلك مرغمًا حين يقتادني كالعنزة إلى الجامع."[45] خضع الشاب للممارسات العنيفة من قبل الذات / الآخر، تلك الممارسات التي – من وجهة نظره – قتلت أحلام المراهقة داخله أثناء نومه، لكنّه " عاش بإحساس مرتاح، يعني دون أي عدوان مضاد، ولا انفعالات"[46]. تلك السلبية التي تلقَّى بها الشاب العنف، هي نفسها التي ستحوِّله لاحقًا إلى ذات عنيفة، ممزّقة، لا تستطيع أن تعرف وجهتها الحقيقية؛ لذلك سقط (جوزيف) في (ميكانزم) الدفاع السلبي، الذي من خلاله قرر التمرد على الجميع، دون قدرة حقيقية على رفض العنف الموجه إليه، ومعها تعمَّق التمزّق الداخلي.

بدأ (جوزيف) يشعر بما يُسمّيه (إيريك فروم) بسيرورة التفرّد[47] وهو شعور يجمع بين الرغبة في إثبات الذات والخوف من الضعف الداخلي؛ لكنّه يحاول التمرّد لإثبات

ذاته، ولأن الذات وقعت فريسة العنف، ولم تستطع الرد؛ فباتت ممزّقة، غير واعية، فقدت القدرة على رد الفعل العقلاني؛ فقررت أن تتمرّد على الجميع، وبصورة أقرب للهروب منها للتمرّد الواقعي، " بدأتُ البحث في الأديان؛ فوجدتُ أن الالتزام بالفرائض الطقوسية في الإسلام أكثر مما ينبغي احتماله: فرض الصلوات الخمس، تجويع شهر رمضان الذي لا جدوى منه بعد احتفالات التخمة إثر الإفطار، وغير ذلك مما بدأت أُشكك في جدواه"[48] قرر الثورة على كل شيء، لكنّه لم يقرر الثورة على من ظلمه، إنما اختار طريق الهروب؛ فقرر ترك دينه، بعد أن عدَّد لنفسه أسباب الخروج منه، دون أن يتطرق إلى السبب الرئيس في ذلك، وهو عنف الأخ، وشيوع القهر في المجتمع، والخضوع للأنثروبولوجيا الحضارية المفروضة من قبل المُستعمِر، " ولذلك غيّرت ديني لاقتناع ثابت بحاجتي لأفق روحي آخر ألجأ إليه"[49]، هذا التمرد الانفعالي السريع يؤكد حالة التمزّق الذي عانى منها الشاب العربي في محيطه المستبد، لكنّه تحت ضغط القهر لم يستطع التمييز، ولم يفرق بين الدين والإنسان، فربط بين الأمرين؛ فنتج عن هذا التمزق الاندفاع نحو العداء لدينه القديم، ظنًّا منه أن هذا الدين هو الذي أنتج القهر والاستبداد، ولم يعِ أن الانثروبولوجيا الحضارية هي التي أنتجت الاستبداد المجتمعي، وخلقت حالة التشظّي أو التمزّق النفسي ومعها " تصبح الانحرافات والتشوهات التي تخدم الذات مصدرًا تحفيزيًا قويًا للأحكام الخاطئة"[50].

" لست ساذجًا، فلقد قرأتُ الكثير عن المسيحية، وعرفت أن الكاثوليكيَّة الرومانية لا تختلف كثيرًا عن مذاهب السنة قياسًا إلى الشيعة والزيدية والإباضية، وسواها من الفرق المغايرة للتيار الإسلامي السائد"[51].

تجنح الذات – ولا سيّما الذات الممزّقة – إلى تصديق ما يُرسِّخ لها قناعاتها غير المنطقية أو المنطقية؛ لأن هذا التصديق يعزز ذاتها، ويُرسِّخ حالة التقمّص الإسقاطي الذي يدفعها لمزيد من الانسحاب، أو التمرد الانفعالي غير الواعي، وهذا ما بدا واضحًا في شخصية (جوزيف)، اليمني المُتنصِّر، الذي اختار بدافع الذات الممزّقة المذهب الذي يستطيع من خلاله الترويج لانحرافاته الفكرية، فأوضح أنه اختار المذهب الإنجليكاني؛ لأنه المذهب الذي يناقض الكاثوليكيّة الرومانية المُهيمنة على العقل الكنسي؛ لأنها تشبه مذهب أهله الذي عاش بينهم مقهورًا.

يهيمن الوجدان السلبي على الذات الممزّقة، ويدفعها دومًا للحيل الدفاعية؛ حتى في حالات المزاح؛ لأن مزاجه ترسَّخت فيه الرؤى السلبية. إنَّ مشاعرنا تؤثّر في أحكامنا وقناعاتنا وسلوكاتنا، " أنت أيها المسلم من بدأ في إفسادي، وليس (جيمي) المسيحي المسكين"[52]؛ هذه العبارة التي أطلقتها الذات الممزّقة كانت تشير إلى ما ترسَّخ في عقلها الواعي وغير الواعي، من أن الإسلام، أو الاستبداد الإسلامي، هو الذي أفسد حياتها، وأخرجها من ديارها. إن المزاج السلبي للذات هو الذي خلق المشاعر السلبية التي تسعى للانسلاخ من التاريخ الحقيقي لها، وجعلها ذاتًا ممزّقة سلبية، وعنيفة تجاه ماضيها " أنا عماني وأنت يمني، ليش ما تتكلم بلهجة يمنية؟"[53]. هربت الذات الممزّقة من لغتها، وماضيها، ورفضت أن تتحدث بها، أو تتحدث بلهجة قريبة منها، وابتعدت عنهما؛ لتستقر في لهجة عاملتها بلين لبعض الوقت " خلينا نحكي لبناني أو مصري، واعتبر أننا عايشين في فيلم هندي أو تاميلي في كولومبي"[54] إنه الانسلاخ من الماضي، والاستسلام للتشظّي والغياب دون تكوين ذات مستقلة واعية.

يُهيمن الوجدان على عقل الذات، ويدفعه إلى التمزّق، والتناقض، والانسلاخ، والهروب، " عدّ العديد من الفلاسفة الوجدان قدرة بشرية بدائية وغالبة، ولكنها ذات سيادة يمكنها أن تخرِّب العقل"[55]، وهذا ما حدث، استسلم (جوزيف) للوجدان الرافض للتاريخ الخاص به؛ فتارة متمرّد حاد، وتارة رافض عنيف، وتارة هارب منسحب " تجاهل (جوزيف) تعليقي بخصوص الطاقية العمانية؛ لأنه منسلخ روحيًا فيما يخصّ ديانته التي نشأ عليها"[56].

يعي الخطاب الفكري والفلسفي للرحلة ما يحتاجه (جوزيف)؛ لذلك يضع يده على الجرح العميق بداخله؛ ذلك الجرح الذي أخرج الانحرافات العقدية والفكرية العنيفة كلّها التي هيمنت عليه. كانت الذات الشابة في حاجة ماسة إلى عالم مثالي، وفّره الحارثي له؛ فاستكانت روحه وهدأت، وقبلت أن تتعامل من جديد مع ثقافة عربية، ومع ذات مسلمة؛ لأنه أبعد عنه شبح القسوة والعنف والتزمّت الذي ظنّه – أو فرضته الأنثروبولوجيا الحضارية – أساسًا إسلاميًا يتعامل به المسلمون كلّهم.

### 3 – الذات الجمعيّة / (النحن)

بين المثالية / عالم الرحلة (اليوتوبيي) الذي يتمسك به الرحالة وبين الواقع، حاول أن يجري مراوحة تخدم فكرته أو رؤيته المثالية للعالم من حوله، وحاول أن يبني عالمه دون الانسلاخ التام من عالمه الواقعي ولا سيّما ذاته الجمعية/ نحن؛ لذلك حضرت (النحن) من وقت لآخر؛ لتُكمل صورة العالم المثالي الذي سعي لخلقه الرحالة.

" يرى الناس أن هويّتهم تُعرَّف جزئيًّا بالتزام أخلاقي، أو روحي ما ، ككاثوليكي، أو فوضوي (Anarchist) أو قد يعرِّفونها جزئيًّا، بالأمة أو التقليد الذي ينتمون إليه، كالقول الأمريكي ... فما يعنونه بذلك لا يقتصر على الإفادة أنهم مرتبطون بقوة، بوجهة النظر الروحية هذه، أو بتلك الخلفية، بل إن ذلك يوفِّر الإطار الذي من داخله يستطيعون أن يحددوا أين يقفون إزاء مسائل تختص بما هو خير أو ذو شأن، أو رائع، أو له قيمة، ... أقول إنهم يقولون إنهم إذا فقدوا ذلك الالتزام أو المطابقة فسيضعون في لجٍّ عميق."[57] بهذا تمسَّك الرحالة العماني بـ(النحن)، وراح يتذكرها من وقت لآخر، ـ ويربطها بما يرى في عالمه الجديد، بل كان يسعى بإصرار إلى تصفُّح (النحن) في جولاته المثالية التي كان يقصدها؛ بهدف دمج المثال بالواقع؛ ليحقق لذاته الهدوء والشعور بالأمان القائم على السلام النفسي.

#### 1/3 - الذات الوطن / (النحن) الوطني

يحاول الرحَّالة العماني أن يُشيّد عالمه الجديد منطلقًا من عالمه الواقعي مع إضفاء مسحة المثالية على ذلك الواقع، أن يُقيم عالمه دون تعارض مع الذات الجمعيّة / (النحن) التي لا يستطيع الغياب عنها؛ فهي المكوّن الأول لذاته بكل أنماطها.

" رمية العجوز لحبل الرّسوّ استلت من الذاكرة خطام النياق، وسحبت في بحر صحراء بعيدة"[58] في الرحلة المُبهجة التي سعد بها الرحَّالة العماني حضرت الذاكرة، أو تداعت الذاكرة لتجلب له ذكريات (النحن) / الذات الوطن عبر الحنين للماضي (Nostalgia) التي بنى عليها الرحالة عددًا من أنماط ذاته وعالمه المثالي، "في صحراء بعيدة"؛ إنها الروح التي تتوق للمجهول، وللذكريات الهادئة، التي تخلق السلام النفسي. إن الذات تبحث عن هدوئها، وسلامتها النفسية، من خلال الاحتماء (بالنحن) في مواجهة الآخر في

بداية رحلته نحو استكشاف عالمه الجديد، وقد كان أيضًا يستكشف قوة (النحن) / الوطن من أجل مقاومة العواصف التي قد تُعكِّر صفو رحلته في (يوتوبيا) ذاته. يتأكد شعوره بالراحة والطمأنينة والبساطة كلما لاحظ ما يستدعي صورة (النحن) / الوطن أمام مقلتيه " دخلنا المطعم البسيط الشبيه بأي مطعم هندي أو باكستاني بسيط في مسقط أو دبي، حيث بإمكانك الجلوس على أي طاولة؛ وإن سبقك إليها آخرون لا تعرفهم"[59] إنها العودة إلى راحة الوطن، حيث البساطة والتلقائية بعيدًا عن قوالب الحضارة الحديثة، يهرب الرحَّالة بذاته الفردية إلى (النحن) / الذات الوطن؛ كي يشعر بطمأنينة الألفة ويطرد أشباح الاغتراب. إنها البحث عن حياة تستحق العيش، عن حياة تلفظ قوالب ما بعد الحداثة.

" أدهشتني معرفتها بعُمان التي نطقت اسمها، فأخبرتني أنها عاشت في صلالة خمس سنوات، وتتحدث العربية قليلًا، ... حيث حاولت دفع الثمن رفضت قائلة: لبلادك أفضال علي فرجاء اقبل عزومتي. ... كانت بوذية؛ فانحنت وضمّت كفيها تحية وداع، وتمنَّت لنا السلامة في الطريق"[60] جاءت صورة (النحن) / الوطن؛ لتؤكد للرحالة رؤيته في عالمه المثالي، فانطلاقته هذه المرة تبدأ من (النحن) حيث الوطن النبيل، الذي يخلق في نفوس من يزورنه أو يعيشون فيه حالة من الرضا، تلقف خطاب المرأة براحة نفسية كبيرة، تأكَّد من أن جهده في خلق ذاته المثالية لن يضيع هباءً، كما لم يضع كرم عمان هباء، وها هي المرأة تُذكرِّه بل وتبادر برد الجميل عبر هدية ثمينة جدًا رغم بساطتها، وربط خطاب (النحن) بخطاب الذات المثالية والآخر المثالي، عندما ذكر ديانة المرأة وأنها بوذية، من أجل تأكيد إخوة الإنسانية التي لا بد أن تسود؛ كي تقضي على الصراع والتشرذم والاغتراب.

**2/3 - (النحن) المجاور / الذات المجاورة**

رصد الرحَّالة صورة (النحن) المجاورة أو الذات الجمعيّة العربية التي قابلها في مجتمعه الافتراضي المثالي، وجاء رصده لها من خلال رؤية الآخر لها بوصفها صورة ذهنية عند الآخر.

"خلال رحلات التجوال لاحظت وجود عائلات عربية، فرغم بنطلونات الأزواج إلا أن عباءات النساء تفضح عِرق العراقة"[61] شعر الرحالة العماني بالراحة والطمأنينة عندما شاهد نظرائه من بلدان الخليج؛ فالإنسان دومًا توَّاق إلى من يشبهه في الثقافة واللغة

والموطن. ظهر ارتياحه في التعبير بعبارة "عِرق العراقة" التي تدل على ابتسامة القلب، لكن في الوقت نفسه لم يبادر بالتَعَرُّف عليهم، وكأنه أراد أن يتفرّد بعالمه المثالي في الجزيرة.

في كل مكان تحل فيه (النحن) المجاورة تتصدّر المشهد بالصورة الذهنية لأبناء الخليج، الثراء والبذخ"، وبعضهم في الجناح الملكي الذي يقطن به الآن مليونير من الإمارات، قال (جوزيف) ممازحًا: اسأله عن رقم جناحه؛ لتزوره، فهو جارك جغرافيًّا في أيّ حال"[62] يُؤكد الخطاب تلك الصورة الذهنية المأخوذة عن الخليج، ويؤكد عدم استجابته لممازحة (جوزيف) له؛ لأنه اختار عالمه المثالي، وأراد التفرد أو الانفراد به، واكتفى بمشاهدة (النحن) من الخارج فقط، بفعل الحنين أو الطمأنينة، وليس المشاركة والتفاعل الحقيقي.

" النادل كان لطيفًا، ويسألك من أي البلدان قدمت؛ فتكتشف أنه كان يعمل في قطر أو دبي على سبيل المثال. وبطبيعة الحال يتفنن في إرضائك أملًا في بقشيش محترم"[63] صورة جيدة التي تتشكل في أذهان الناس عن (النحن) / الذات الجمعية المجاورة؛ لأنها تدل على الثراء والعطاء والكرم، وهي صفات إيجابية. تتداخل (النحن) / الذات الجمعية مع الذات المثالية، وتستغل الصورة الذهنية عن (النحن)؛ لتقرر منح البسطاء البقشيش الذي يساعدهم في الحياة " طبعًا لم أكن أمانع في نفح النُّدل الذين يخدمونني جيدًا بقشيشًا لائقًا؛ لأنني كنت أعرف ضآلة ما يحصلون عليه شهريًا"[64].

**3/3 - (النحن) الثقافي / الذات الجمعيّة الثقافية:**

يؤمن الرحَّالة العماني بالتاريخ والثقافة، بوصفه إنسانًا عاش في بيئة حضارية لها تاريخها وتراثها، فهو يُقدِّس التاريخ والثقافة، ويميل للماضي؛ لأنه يحقق له مدينته المنشودة ذات البعد المثالي، "لوحة كبيرة كُتب عليها بالعربية مركز أحمد عرابي باشا الثقافي ... حين لمحت اللوحة خطفًا صُعقت فرحًا؛ فصرخت بـ (ماركوس) طالبة منه التوقف"[65] كانت فرحة الرحالة العماني بالمركز الثقافي لأحمد عرابي تؤكد أنه يعي أهمية التاريخ والثقافة في خلق الوعي الحي للنحن العربية، " فمع ما شهده العالم العربي من فشل في مساعي الوحدة ومشاريع التنمية، ومن نزاعات وحروب، وكوارث اجتماعية في بعض مناطقه ودوله، كل ذلك يُبقى الأسئلة مفتوحة، حول مهمة المثقف ودوره"[66]

وتأتي فرحة الرحالة العماني بوصفه مثقفًا عربيًا؛ لتؤكد أننا بحاجة إلى محاولة بعث ماضينا للتعرف عليه، لا هجره والتخلي عنه، بحجة أنه لم يعد مواكبًا للتقدم الحادث في الكون اليوم، بل نحن أحوج ما نكون لتاريخنا؛ حتى نفهم ما يدور حولنا، وكيف انغمسنا في الماضي في فخ التراجع والضعف؟! فبرؤية ثقافية عبر الذات المثالية تبرز (النحن) الثقافية، وكأن الذات تريد أن تُخبر الجميع بأن لنا تاريخًا مهجورًا وعلينا العودة إليه واستكشافه مرة أخرى. "انسَ انسَ متحف الشاي واصعد هذا الطريق الضيق، استغرب من طلبي العجيب متسائلًا عن السبب، قلت له هذا هو مقر أحمد عُرابي الذي بحثت عنه طويلًا ولم أجده"[67]. وهنا الذات المثالية وجدت ضالتها في (النحن) الثقافية التي طالما بحثت عنها، إن الذات المثالية التي أرادت أن تخلق عالمًا مثاليًا قررت أن تُعيد التواصل والتفاعل بين الذات العربية المنقادة للحاضر، وإغفال التاريخ وبين (النحن) الثقافية أو التاريخية؛ لتستلهم الروح القوية لمناهضة الغياب والعودة من جديد عبر عالم التصالح والسلام العربي العربي. لم يكتفِ بالعودة إلى (النحن) الثقافية، بل راح يخبر رفيق رحلته (ماركوس) بهذا المَعْلم؛ ليقول له إنه لا يقل مكانة وقيمة عن كل الأماكن التي زرناها من قبل، بل إنه الأهم؛ لأن روح (النحن) المتضامنة عربيًا تكمن في هذا المكان. " أما غرفة نومه الواسعة فقد أضحت الآن مكتبة يؤمها الطلاب المهتمون بالثقافة العربية والإسلامية، وبها كتب بالعربية والسنهالية عن مسيرة عُرابي وحياته في سرنديب"[68] كانت كلمات الرحَّالة العماني خطابًا ثقافيًا تاريخيًا يلفت الانتباه إلى الثقافة العربية والإسلامية المهجورة، الكل يؤمها لكن العرب غافلون عنها، إن الذات المثالية وهي ترصد (النحن)، تريد بعث التاريخ والثقافة العربية والإسلامية. " أطلتُ زيارتي لمنزل عرابي ولم يبق وقت لزيارة متحف الشاي"[69] حضرت (النحن) الثقافية فتماهت معها الذات المثالية، وعاشت فيها ذكريات التاريخ والثقافة؛ كي تستمد منهما القدرة على الخلق والبعث والتسامي فوق أي صراع.

### 4 - الآخر

#### 1/4 - الآخر المثالي (الإيجابي)

" كل الاحترام إذًا للأرواح الخيّرة التي ترعى على الأرجح مؤرّخي التاريخ هؤلاء! بيد أنّه من اليقين وأسفاه، أن الروح التاريخية ذاتها تعوزهم، و كل الأرواح الخيّرة للتاريخ

بالتحديد قد تخلّت عنهم في محنتهم! فهم يُفكِّرون جميعًا كما تعوَّد الفلاسفة من دهرهم، بطريقة لا تاريخية في جوهرها"[70] أكثر الفلاسفة من الحديث عن الأعمال الخيّرة التي يتعين عليها أن تسود الكون؛ كي نستطيع أن نُعمِّره بالشكل الأمثل، لكنّ الحقيقة تُؤكد أن هناك قطيعة كبرى بين الآراء الفلسفية وبين الواقع الذي نعيشه، أو حتى بين الفيلسوف صاحب الرؤية الخيّرة وبين ممارساته على أرض الواقع. إن الإنسان يعاني حال فصام نفسي كبيرة، تجعله ينطق بشيء ويفعل نقيضه في الأغلب؛ إنها المعضلة الإنسانية الكبرى.

تُعدّ رحلة محمد الحارثي رحلة فلسفية في المقام الأول، تجسَّدت فيها العديد من الأفكار والتساؤلات المطروحة، كانت الرحلة مهمومة بالإجابة عن التساؤلات الفلسفية المرتبطة بالذات والآخر في عصر ما بعد الحداثة وما بعد بعد الحداثة، وكان التساؤل الأهم الذي دخلت معه الرحلة في حوار أو جدل مفتوح: هل علاقة الذات والآخر تحكمها ثلاثية الاحتكار، العدوان، التجاوز؟ هل لا بد أن تكون العلاقة بينهما علاقة صراع ونفي؟

في سعي الرحلة للإجابة عن التساؤلات الوجودية خلقت لنفسها رؤيتها الخاصة التي حاولت أن تتجاوز بمفهوم التلاقي الإنساني والارتقاء بالنفس البشرية، وجذبها بعيدًا عن مفهوم التجاوز والصراع، والنفي والإلغاء؛ فبدأت بخلق الذات المثالية التي تتقبّل الآخر بصوره كلها، بكل أطيافه، تتقبل الآخر من أجل السلام المفقود، من أجل الخلاص من التمزّق الإنساني، الذي نتج عن الحضارة الحديثة ومعاركها التي لم تنته.

في المقابل كان لا بد من صورة الآخر المثالي أو الإيجابي، ذلك الذي ينظر للذات – التي هي في نظره آخر – نظرة مثالية إيجابية، قائمة على الود، رافضة صور الصراع القديم من أجل السلام، السلام النفسي والإنساني.

بدأت رؤية الرحلة في التشكُّل عندما التقى الراوي بشخصية (جيمس)، الأسترالي، الذي يدين توجُّهات بلاده العنصرية، ويدين صور القهر في السياسات الغربية " جيمس رجل ناضج ومنفتح يدين العنصرية، ولديه رؤيته السياسية حول أحوال العالم، وهو منتقد صريح لسياسة بلده أستراليا، وسياسة الغرب تجاه بلدان الشرق الأوسط والدول الأفريقية"[71] مثل تلك الآراء تخلق حالة من الراحة والرضا لدى نفس الآخر الذي ينتمي للثقافة الأضعف في مواجهة الثقافة الأقوى، لكن هذه الكلمات تظل حبيسة إلى أن

تحررها الأفعال وتؤكدها. أسهم الحوار في تشكيل مثالية (Utopia) الرحلة، وخلق مثالية الآخر التي بدأ الراوي في لمسها بنفسه من خلال النقاشات التي راح يجريها مع مشاركينه محيطه الاجتماعي.

" كن جاهزًا بعد الإفطار غدًا في رحلة على القارب وسيكون (تشينتاكا) سيد قباطنة القناة الهولندية"[72] خلق الآخر (جيمس) مُثاقفة اجتماعية مع الراوي، تقوم على التعاون والتشارك لا الصراع والتجاوز، وهذا ما ساعد الراوي في تشكيل مجتمعه الافتراضي المثالي؛ لينجو من صراعات الواقع ما بعد الحداثي. " كان (جيمس) قد وعدني برحلة مجانية على قاربه الخشبي ... كنت متحمّسًا للرحلة؛ لأنها كانت مفاجأة حقيقية"[73] كانت مُثاقفة (جيمس) مُثاقفة متساوية، لا استعلاء فيها؛ لذلك بدت العلاقة متكافئة وناجعة، شعر من خلالها الراوي بصورة إيجابية للآخر الغربي، الذي – ربما – كان ينتظر منه خلاف هذا التعامل، لكن التعامل الآمن ساعد في خلق مثالية (Utopia) المجتمع الافتراضي للراوي/ الرحالة.

أكّد (جيمس) / الآخر للذات رؤيتها من خلال تأكيده على التعايش السلمي بين الذات والآخر حين قال " هل رأيت بأم عينيك؟ في هذه البلاد يتعايش المسلمون والمسيحيون والهندوس والكثرة الكاثرة من البوذيين في وئام وانسجام، بل إنهم يختلطون لتأكيد هذا المزيج الفريد بالزواج"[74] بدا من كلام (جيمس) أن هذه الأرض التي التقيا فيها الآخر/ (جيمس)، الذات / الرحَّالة هي أرض التعايش السلمي الآمن، أرض الآخر المثالي. انهزمت المركزية الغربية أمام التعايش الآمن بين الآخر والذات؛ حيث تراجعت أفكار الاستعلاء الغربي، والقوة الثقافية للغرب، وبدأت أفكار الحوار الهادف الخلّاق، الذي خلق اليوتوبيا الكونية للرحَّالة محمد الحارثي.

الكل في مجتمع الرحالة الافتراضي يرغبون في الحياة السلميَّة بعيدًا عن أي صراع قديم أو حديث؛ لذلك ينكرون كل قسوة أو ظلم، فعلها أجدادهم " صدقني لم أرتح لذلك العصر الاستعماري البغيض، رغم أنني مواطن بريطاني، ربما لأنني شاهدت بحساسيتي الفنية ما فعلوه في بورما ومصر والهند، وهنا حيث سبقهم البرتغاليون والهولنديون؛ ليستكملوا هم مهمتهم الخسيسة في جزيرة وادعة"[75] تكشف تلك الحالات عن صورة

إنسان الحداثة وما بعدها، الإنسان المُشوّش المُغترب عن محيطه الواقعي، فالمُغترب هو الإنسان العاجز عن التكيُّف، فاقد للمعنى، للقيم والمعايير، غريب عن ذاته، غريب عن ثقافته؛ لذلك دومًا يلهث خلف العالم المثالي[76] الذي قد يتحقق في رحلة سياحية أو علمية، وسرعان ما يغمر ذاته فيه إذا وجده، فهم جميعًا غاصوا مع الرحالة العربي في عالمه المثالي، تعاونوا، تكاتفوا، أفصحوا بصوت جهوري عن شعورهم بالحزن والأسى من ظلم الإنسان للإنسان، " الاستعمار في نظري خطيئة لا تقل عن استرقاق البشر لإخوانهم"[77]

جاءت أكبر إيجابية في العالم المثالي الذي سعت الذات المثالية لخلقه، لحظة رفض العنف الممنهج، رفض سرقة الأراضي، رفض العنصرية والاستعمار " يهودية ألمانية، هل تعرف؟ نحن اليهود مثلكم أنتم العرب رائعون وأذكياء؛ لكن دولة إسرائيل تشعرني بالخجل دائمًا، وأضطر لإخفاء أني يهودية"[78] كانت صورة الآخر المثالي تتجسد في هذه المرأة التي أعلنت بصراحة أنها ترفض دولة إسرائيل؛ لأنها تُمثِّل وصمة عار في جبين اليهودية، كان هذا من وجهة نظرها، وجهة النظر المثالية التي تؤكد أن العالم المثالي من الممكن أن يتشكَّل؛ عندما تتحقق النوايا الحسنة والرغبة الحقيقة في التعايش السلمي " مات زوجي ... كان عائدًا من زيارة لأقاربه في إسرائيل؛ لأنني رفضت مرافقته لعدم ارتياحي لسلوك الحكومة الإسرائيلية مع الفلسطينيين"[79].

يستمر العالم الافتراضي في التشكُّل وبمرور الوقت ينضم إليه أفراد جدد، فلم يكن (جيمس) وحده الآخر المثالي بل جاء (ماركوس) المسيحي المثالي الذي كان يتعامل بروح الإخوة الإنسانية مع الرحالة محمد الحارثي حتى في تحمله مغامراته "يبدو أن (ماركوس) كان يتألم أكثر مني، وقد صبر معي صبرًا جميلًا"[80] أخلاق يوتوبيا العالم الافتراضي سادت، وصارت المشاركة هي أساسها " أنا المسلم الإباضي، و(ماركوس) المسيحي الكاثوليكي صلّينا ... وتقبلت الآلهة هدايانا الصغيرة حين مرّ الراهب ورشنا بالماء المقدس إشارة قبول"[81].

أسهمت رؤية الرحالة لذاته المثالية في تشكيل عالمه اليوتوبي مع الآخر المثالي، الذي أكمل الصورة المثالية للعالم الذي اختاره الرحالة؛ كي يعيش فيه، بين رفقاء يشبهونه من حيث: السلام النفسي والانفتاح على كل الأفكار والثقافات السلميَّة.

" قبل عيد الفطر وصلتني رسالة مماثلة فأعدت إرسالها لعزّان طالبًا تفسيرها، فقال: هذه رسالة من رئيس البلاد يُهنِّئك أنت وجمع المسلمين بحلول عيد الفطر. طلبت إليه رؤية الرسائل السابقة أيضًا: فقال هذه رسائل يرسلها الرئيس لتهنئة المواطنين في مناسبات أعيادهم الوطنية والدينية بوذيين، ومسيحيين، وهندوسًا أو مسلمين، ... قلت لنفسي: يا لهذا التقليد المُتحضّر" (82)

**2/4 - الآخر المستعمر**

**1**

كسا الرحالة العماني رحلته بالصبغة المثالية، التي يفتقدها بوصفها ذاتًا تحيا في عالم الصراع، عالم ما بعد الحداثة حيث الشقاق الحضاري في كل مكان، ولأنه ارتدى النظارة المثالية؛ فراح يرى العديد من الإيجابيات والمثاليات في محيطه الافتراضي الجديد الذي شكّله برؤيته المتمناة، فلبعض الكتاب تصوُّرات اجتماعية يبتغون تحقيقها، لكنّها لا تتحقق، لكنّهم يسعون في تحقيقها لكونها – حسب رأيهم – تُمثِّل الحالة المثالية التي يرجون أن يعيشوها، ذلك أنه بسبب التحلل والتفسخ الذي استشرى وتعمّق في البنى الاجتماعية، وبسبب الظلم والقهر الذي طغى على المجتمعات، راح هؤلاء الكتاب يبحثون عن المثالي والنموذجي من حولهم؛ ليضمن لهم الحياة الكريمة التي يتخلصون فيها من مشكلاتهم المتفاقمة على كل المستويات.

يدفع البحث الدائم عن العالم المثالي الإنسان – أحيانًا – إلى الحنين للماضي عبر نماذجه الباقية: مبانٍ، طرق، متاحف، سكك حديدية، وبعض الأناسي يرون في التراث المادي للماضي خلودًا ومثالية، يخالف المستقر فكرًا ومنطقًا عن هذه الحقب الماضية، ومن بين هذه الحقب الحقبة الاستعمارية التي راح الرحَّالة العربي يُمجِّد فيها من خلال انبهاره – عبر روحه المثالية – بما خلّفه المستعمر من مبانٍ، سكك حديدة، متاحف وفنادق، فقط لمجرد عجز الحاضر عن إنجاز مثل هذه المباني، ويغيب عنه أن المستعمر هو سبب هذا البلاء الحادث في مجتمعاتنا الحالية، وأحيانًا يقع المفكر العربي أو الإنسان العربي فريسة الأنثروبولوجيا الحضارية، التي خُلقت داخله عبر استعمار الوعي من قبل الغربي.

هذه الرؤية تظل حبيسة الحنين المثالي للماضي (Nostalgia) التي خلقها الرحَّالة في عالمه الاجتماعي الجديد الذي أراد صبغه بالمثالية؛ فراح يبصر مخلفات الاستعمار بصورة مثالية متغافلًا عن أفعال المستعمر الأخرى " لدرجة أنني تمنيت عودة محاسن الاستعمار"[83] يستهل الرحالة حديثه عن المستعمر بأمنيته أن تعود محاسن المستعمر؛ لتضفي على محيطه الافتراضي الجديد نكهة رومانسية مثالية، تردُّه إلى الماضي الذي يرجو عودته من جديد.

تستمر هذه الصورة التي تخيّلها الرحَّالة حول المستعمر وصنيعه " يبدو أن مديحي لمحاسن الاستعمار في المتخلّف من الديار يأخذني بعيدًا، لدرجة أنني أسرح في تأملاتي لأفوِّت ما أراه من خلال عبورنا"[84] يريد الرحَّالة أن يقنع عقله بمحاسن المستعمر؛ فيستغرق في سرحانه حيث الذكريات البعيدة، التي تتميز بالسحر والجمال المفقود في عالمه، لكنّه يقول " يأخذني بعيدًا" وكأنه شعر بأن الحنين للحقبة الاستعمارية يُلغي عقله، ويتغافل عن مساوئ الاستعمار، المُتسبب في المأزق الحضاري للأمم. يلح الخطاب الرحلي في تذكيرنا بمحاسن الاستعمار، وكأن كل حُسن في تلك البلاد كان بفضل المستعمر الأوروبي، ولا ندري أهذا المديح المتكرر يعد انبهارًا حقيقيًّا بالحضارة الغربية بكل ما فيها؟ أم هو مجرد حنين للمباني الفخمة التراثية التي يسيطر عليها الفن والذوق الراقي؟ " للاستعمار محاسنه، فلو لم يحافظ الإنجليز على تلك التحف؛ لذهبت هباء منثورًا"[85]

رسم الرحالة صورة ذهنية عن المجتمع الشرقي وعن المستعمر الغربي، لم تظهر هذه الصورة صراحة إنما كانت مغلّفة دومًا بالتأكيد على محاسن المستعمر وأفعاله؛ فيصف دقة مواعيد القطارات ويربطها بالمستعمر " رغم دقة المواعيد التي تركها الإنجليز في الجزيرة لكنها قد تتأخر أحيانًا"[86] في الحقيقة حال الشرق بعد رحيل المستعمر في غاية السوء، وتسود مجتمعاته الفوضوية، لكن السؤال الذي لا بد من أن يسأل الخطاب الرحلي عنه ماذا كان الإنسان الشرقي قبل المستعمر؟ هل كان فوضويًا، بلا دقة وبلا التزام؟ ولو كان كذلك كيف استمرت حياته في أرضه حتى جاء المستعمر؟ إن مثل هذه التساؤلات كان لا بد أن يشير إليها الخطاب قبل التأكيد المستمر على عظمة المستعمر، " فضلًا عن المزاج الإنجليزي الفطري في الاهتمام بالحدائق"[87]

غادر وترك المستعمر محاسنه خلفه؛ لننعم بها هكذا كان التصور اليوتوبي لدى الذات المثالية التي قصدت أن ترى الماضي كله جميلًا؛ فراحت تثني على صناعة الإنجليز لقطارات السكك الحديدية في سيلان، وكيف أنهم تركوا بصمة جمالية رومانسية في صنيعهم؟ جعله وأهل تلك البلاد يستمتعون بجمال هذه المنحة الاستعمارية " فلتكن سكة الحديد موازية، للشاطئ؛ حتى نستمتع بشرفة مطلة على المحيط الهندي"[88]

استغرق الرحَّالة العماني في رحلته اليوتوبية التي خلقها بنفسه، بأحرفه وببصره، وهو يتجوّل في مدن سيلان وشوارعها، من الواضح أنه كان مدفوعًا بالرغبة في الخلاص من إرث الواقع المؤلم؛ فألقى بنفسه في مثاليته، وأراد أن يهرب من العالم الفاشل إلى رحابة المثالية، التي رأى بها كل المحاسن التي تريح قلبه المجهد، ولا تعكس الحقيقة ولا الواقع، ولا نتائج الحقبة الاستعمارية.

تحت وطأة التأزم الحضاري لا يستطيع الإنسان التمييز بدقة بين سلوكات المستعمر ومنتجاته الحضارية معنا، وكثير من الشعوب المغلوبة على أمرها تقع فريسة التماهي مع أفعال المستعمر، وربما تكون تلك الحالة التي تسعى لتمجيد التراث المادي للمستعمر قد وقعت فريسة لهذا التماهي الذي سعى المستعمر لترسيخه في وجداننا عبر ما يعرف باستعمار الوعي، فمن خلال الترويج لمنتجاته؛ ينجح في تحقيق هدفه بإخضاع أبناء البلدان المستعمرة للتماهي معه، والحكم بمنظوره هو، لا بمنظور الواقع والحقيقة.

**2**

كانت صورة الآخر/ المستعمِر في عالم الرحَّالة العماني مثاليًا، ولم يشر كثيرًا إلى مساوئه إلا قليلًا، وجاءت أقوى الانتقادات للمستعمِر الغربي على ألسنة أصدقاء الرحَّالة من الغربيين، لكنني لا أستطيع أن أقول إنه اكتفى بآراء الغربيين المنتقدين للاستعمار؛ حيث إنه لم يُعقِّب على آرائهم في الغالب، واكتفى بالصمت، وفي مواطن عديدة من الخطاب الرحلي كان يثني على أفعال المستعمِر، وهذا ما أشرت إليه في الصفحات السابقة، وبرغم سيطرة الذات المثالية لفرض عالم يوتوبيي خاص برحلتها الأخيرة فإنها – ربما كانت مدفوعة بمحاولة تلمُّس الموضوعية – أشارت إلى بعض مساوئ الاستعمار التي ارتكبها في حق الأمم المغلوبة على أمرها، وتجريدهم من تراثهم المعماري أحيانًا،

"من المؤسف أن البرتغاليين دمّروا المعبد، وبنوا كنيسة قربه"[89]. في الحقب الاستعمارية كلها، كان المستعمر يسعى لطمس الهوية الوطنية للأمم المستعمرة وفرض هويته، من خلال استبدال الاستعماري بالتراث الوطني؛ من أجل خلق وعي جديد يجهل تراثه، ولا يعرف سوى تراث المُستعمِر.

يسلب المُستعمِر حقوق البلدان المُستعمَرة من خلال استغلال ثرواته لمصلحته، وترك الفتات لهم "زرنا أحد مصانع الشاي التي تسيطر عليها شركة (ماكوودز Mackwoods) المحتكرة لمعظم مصانع الشاي في المنطقة"[90]. يرصد الخطاب الرحلي احتكار المُستعمِر منذ الحقب الاستعمارية وحتى اليوم خيرات الشعوب التي وقعت تحت سيطرتهم، وقد استفادوا هم من الثروات، وتركوا أصحاب الحق في حال يرثى لها، "بنظرة سريعة يستطيع المرء ملاحظة كثرة كاثرة من الشحاذين والفقراء ومدمني الخمرة الرخيصة وذوي العاهات ممن كانوا مُستخدمين بوصفهم عمالًا في مصانع الشاي وقاطفين لأوراقه"[91] وهذا ما دفع الرحَّالة ولأول مرة أن يعترف بقوله: "شعرت بانقباض نفسي لما بدا واضحًا من تركة الاستعمار"[92] استحضر الرحَّالة الذات الواقعية التي ترى بعين الواقع، لا بالعين المثالية التي هيمنت على الخطاب الرحلي، " الغنى والفقر متجاوران حدّ التلامس في خطين متوازيين ... حيث يُزكِّم الأنوف نموذج الرأسمالية البشع، ... وهم أجانب معظمهم ملاك لشركات الشاي"[93].

استعمر المُستعمِر وعينا، ونجح في جعلنا تابعين له فكريًا حتى تماهينا معه في كثير من الأحكام والأفعال والممارسات، روّج لشائعات عنّا نحن أبناء الشرق وأبناء البلدان المحتلة، وصدَّقنا نحن هذه الشائعات، وفقدنا الثقة في ذواتنا الفاعلة " كنت في زنجبار، لاحظت أنهم ينامون كثيرًا تحت الأشجار معظم الوقت ولا يفعلون شيئًا. طبعًا هي خصيصة كرّسها الاستعمار لسكان إفريقيا، وادّعاء أنهم كُسالى ولا يريدون القيام بأي شيء"[94]. نحن أمام عملية تشويه متعمّد من أجل حرمان الشعوب من قدرتها وإيمانها بذاتها في النهوض والتقدم؛ إنه تأكيد لروح الاستعمار والأنثروبولوجيا الحضارية التي تقول بضعف الشعوب المستعمَرة، وأنهم خُلقوا ليكونوا تابعين مهمَّشين، إننا أمام مسألتين "هما وجهان لعملة واحدة، الأولى عبء التعسف الماثل في انتزاع ما حُكم عليه بأنه لا شيء، أو شكل فارغ من العالم والحكم عليه بالموت. والمسألة الثانية هي طريقة حرمان الذات التابعة

المُستعبدة من السلطة، والإمعان في إبعادها، إلى الجانب الآخر، خلف العالم الموجود، أو خارج العالم؛ لتقضي على نفسها بيدها وتطيل معاناتها."[95] إنها المعاناة الحقيقية التي وقعنا في حفرتها ولا نود الخروج منها، وهي المعاناة ذاتها التي استسلمت لها الذات المثالية للرحَّالة العماني، وراحت تمتدح الحقب الاستعمارية موظّفة ما خلّفه من تراث معماري أو مشاريع سكك حديدية صُنعت في المقام الأول لخدمة مصالحه البرجماتية، وفي المقابل دمر أهم مقوم حضاري، وهو العامل البشري، الإنسان.

**الخاتمة**

كانت رحلة محمد الحارثي رحلة للغوص في الذات البشرية؛ فهي رحلة في النفس البشرية قبل أن تكون رحلة في المكان والزمان، واستطاع الخطاب السردي وصف حال الذات والآخر في زمن ما بعد الحداثة وما بعد بعد زمن الحداثة، فضلًا عن رصد الذات المتوتّرة القلقة التي تبحث عن المجهول المُتمثِّل في السلام النفسي، وقبول الآخر والتعايش الآمن بين البشر؛ ذلك التعايش المفقود في زمن الرحلة.

تمكَّن الرحَّالة العماني من مزج الواقع بالأمنيات والأحلام من أجل خلق عالم افتراضي مثالي "Utopia" عاشه باقتدار في رحلته إلى الجزيرة، بل إنه ضمّ كل من يشبهه في أحلامه وطموحاته الإنسانية.

ترصد الرحلة الذات الممزّقة/ المتناقضة التي زلزلها الصراع العنيف في العالم الخاص بها والعالم العام؛ مما جعلها تُغامر بأفعال غير واعية، وتمثَّل ذلك في الذات العربية / قيس العيلاني/ (جوزيف) الشاب اليمني المُتنصِّر.

يُعبّر الخطاب الرحلي عن الحلم الإنساني بعالم المثالية (Utopia) الذي تسوده الأخلاق الإنسانية المُتمثِّلة في التعاون والتفاهم وقبول الآخر مهما كان الاختلاف.

ابتكر عالم اليوتوبيا والذات المثالية التي ربطت بين الواقع والخيال وقدرة الإنسان على التعايش الآمن، الذي عكس الحلم الإنساني القديم الحديث في هذا العالم المثالي (Utopia).

ربط الحاضر بالماضي؛ مما أكسب ما دوّنه روح التاريخ، وأقام حوارًا جدليًا بينهما، وأكَّد هدف الخطاب الرحلي بضرورة التوحّد الإنساني العربي ونبذ الخلافات من أجل

استعادة المجد الحضاري. وأبرز الخطاب أهمية الذات الجمعيّة الثقافية للإنسان العربي، وضرورة قراءة التاريخ بعين فاحصة من أجل التمكّن من معايشة الحاضر والمستقبل.

أبرز الخطاب الرحلي صورة الآخر المثالي الذي يعاني نفسيًّا سوء ماضيه الاستعماري الذي شكّل حضارته، وخلق منه صورة مشوهة لا تزال تلقي بظلالها على حياته.

وأخيرًا كان خطاب الرحلة خطابًا مثاليًّا / يوتوبيًّا طمُحت فيه الذات الخاصة بالعالم المثالي المنشود، فكان الخطاب رحلة في الذات المثالية الطامحة إلى عالم أفضل، تسوده قيم التَّسامح وقَبول الآخر والحياة الهادئة، وهذا ما أضفى على الرحلة بعدًا فلسفيًا وجماليًا جاذبًا.

## الهوامش والمراجع

(1) سارجنت، لايمان تاور: **اليوتوبية**، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016، ص، 22.

(2) اليوتوبية، ص14.

(3) اليوتوبية، ص24.

(4) الجيزاني، محمد كاظم: **مفهوم الذات والنضج الاجتماعي**، ط1، عمّان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2012، ص37.

(5) الحارثي، محمد: **فلفل أزرق: رحلتان في سيلان**، ط2، دار مسعى للنشر والتوزيع، 2024، ص27.

(6) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص64.

(7) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص65.

(8) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص65.

(9) المحمداوي، علي عبود: **الإشكالية السياسية للحداثة من فلسفة الذات إلى فلسفة التأويل**، ط1، تونس: كلمة للنشر والتوزيع، 2015، ص107.

(10) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص65.

(11) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص69.

(12) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص184 .

(13) بتلر، جوديث: **الذات تصف نفسها**، ترجمة: فلاح رحيم، ط4، بيروت: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2016، ص108–109.

(14) جيجيك، سلافي: **كيف تقرأ لاكان**، ترجمة: عبد الفتاح عبد الله، مراجعة: هبة عبد المولى، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2017، ص81–82.

(15) فونك، ر.: **الأنا والنحن: التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة**، ترجمة: حميد لشهب، بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع، 2016. ص 44.

(16) مفهوم الذات والنضج الاجتماعي، ص37.

(17) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص21.

(18) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص، 34 .

(19) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص35.

(20) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص35.

(21) ريكور، بول: **الذات عينها كآخر**، ترجمة: جورج زيناتي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005، ص298.
(22) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص35.
(23) الذات تصف نفسها، ص40–41.
(24) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص47.
(25) الذات تصف نفسها، ص49.
(26) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص56.
(27) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص58.
(28) نيتشه، فريدريتش: **في جنياولوجيا الأخلاق**، ترجمة: فتحي المسكيني، تونس: دار سيناترا، المركز القومي للترجمة، 2010، ص57.
(29) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص59.
(30) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص170.
(31) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص170.
(32) الذات عينها كآخر ، ص457.
(33) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص80.
(34) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص248.
(35) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص248.
(36) لبيب، الطاهر: **صورة العربي ناظرًا ومنظورًا إليه**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ص659.
(37) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص79.
(38) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص79.
(39) مجموعة باحثين: **صورة الأنا والآخر في الرواية: وقائع ملتقى الشارقة الثالث للرواية**، الشارقة: دار الثقافة والإعلام، 2011، ص228.
(40) الأنثربولوجيا الثقافية: هي التاريخ الثقافي والحضاري الذي قبع في المُخيِّلة الوجدانية للإنسان المعاصر الذي وقع ووقع تاريخه قيد الأسر الاستعماري.
(41) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص115.
(42) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص130.
(43) صورة العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، ص798.
(44) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص130.
(45) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص130.
(46) الأنا والنحن: التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة، ص، 170.
(47) فروم، إريك: **الهروب من الحرية**، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2009، ص73.
(48) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص130.
(49) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص131.
(50) فورجاس، جوزيف ب.، وبوميستر، روي ف: **السذاجة وعلم النفس الاجتماعي**، ترجمة: محمد صلاح السيد، مراجعة: عبد المقصود عبد الكريم، المملكة العربية السعودية: مكتبة سر من قرأ، 2021، ص28.
(51) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص131.

(52) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص182.
(53) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص193.
(54) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص193.
(55) السذاجة وعلم النفس الاجتماعي، ص301.
(56) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص206.
(57) تايلور، تشارلز: **منابع الذات تكوّن الهوية الحديثة**، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2014، ص72.
(58) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص28 .
(59) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص58.
(60) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص107.
(61) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان ص77.
(62) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص101.
(63) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص192.
(64) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص192.
(65) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص82 .
(66) حرب، علي: **أوهام النخبة أو نقد المثقف**، ط3، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2004، ص145.
(67) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص82.
(68) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص83.
(69) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص84.
(70) في جيناولوجيا الأخلاق، ص44–45.
(71) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص23–24.
(72) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص28.
(73) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص28.
(74) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص32.
(75) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص145–146.
(76) حماد، حسن: **الإنسان المغترب عند إريك فروم**، القاهرة: مكتبة دار الكلمة، 2005، ص6–7.
(77) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص210.
(78) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص135.
(79) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص137.
(80) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص58 .
(81) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص89.
(82) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص205.
(83) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص20.
(84) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص31.
(85) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص46.
(86) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص49.

(87) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص68.
(88) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص191.
(89) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص62.
(90) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص91.
(91) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص96.
(92) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص91.
(93) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص96.
(94) فلفل أزرق: رحلتان في سيلان، ص216.
(95) مبيمبي، أشيل: **ما بعد الاستعمار، أفريقيا والبحث عن الهوية المسلوبة**، ترجمة: أمين الأيوبي، مراجعة: خالد قطب، بيروت: دار الروافد الثقافية ناشرون، 2016، ص234.

# مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

فصلية علمية محكمة - تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت
تعنى بنشر البحوث العلمية المتعلقة بشؤون منطقة الخليج والجزيرة العربية باللغتين العربية والإنجليزية
تأسست عام 1974، صدر العدد الأول في يناير عام 1975



القائم بأعمال رئيس التحرير

أ. د. غانم حمد النجار



## الاشتراكات

| | | |
|---|---|---|
| الكويت | : للأفراد 3 دينار | - للمؤسسات : 15 دينار |
| الدول العربية | : للأفراد 4 دينار | - للمؤسسات : 15 دينار |
| الدول الأجنبية | : للأفراد 15 دولار | - للمؤسسات : 60 دولار |



توجّه جميع المراسلات إلى

رئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

ص.ب: 17073 الخالدية - الرمز البريدي: 72451 الكويت

تلفون: 24986423 - 24984066 (965)

البريد الإلكتروني: jgaps@ku.edu.kw

موقع المجلة: http://journals.ku.edu.kw/jgaps

jgaps.ku : jgaps_ku : jgaps.kuniv



تتوافر نصوص البحوث كاملة لدى:

https://journals.ku.edu.kw/jgaps

EBSCO Publishing Products

المنظومة www.mandumah.com

Google Scholar

الكشاف العربي للاستشهادات المرجعية (ARCI- Web of Science)

**ISSN: 0254-4288**

**ISSN Online: 2791-1586**